

شوقي والتسامح الديني

عيسى فتوح^٥

عُني الشاعر أحمد شوقي (١٨٦٩-١٩٣٢) بالمسيحية في شعره، لأن قرآه بالعربية لم يكونوا جميعاً مسلمين^(١)، بل كان منهم المسلم والمسيحي. لذلك وقف من المسيحية موقف المعتز بها، المؤمن بتعاليمها، وأشاد بالسيد المسيح حتى في قصائده الكثيرة التي مدح بها الأتراك^(٢). فحين هُزم هؤلاء أمام البلغار في الحرب البلقانية، ودخل المتصرون مدينة «أدرنة» التركية العام ١٩١٢ وارتكبوا فيها الفظائع باسم الدين، راح يخاطب السيد المسيح في قصيدته «الأندلس الجديدة» قائلاً:

عيسى سبيلك رحمة ومحبة في العالمين وعصمة وسلام
ما كنت سفاك الدماء ولا امرأ هان الضعاف عليه والأيام
يا حامل الآلام عن هذا الوري كثرث عليه باسمك الآلام
أنت الذي جعل العباد جميعهم رجماً وباسمك تُقَطِّع الأرحام
البغي في دين الجميع دنية والسلم عهد والقتال ذمام

لقد نظم شوقي هذه القصيدة لا ليمسها الخليفة أو الأتراك، بل لسمعها كل الناطقين بالضاد، يعني إليهم هزيمة تركيا وفقدانها مقدونيا، ويقص عليهم قصة الجرح الدامي الجديد، بعد جرح الأندلس القديم.

(٥) أديب وباحث سوري.

(١) شوقي ضيف، شوقي شاعر العصر الحديث، مصر، دار المعارف، طبعة ٢، ١٩٥٧، ص ١٣٣.

(٢) لأن جنه لأمه أحمد حليم التجدي كان تركياً قديماً إلى مصر على عهد إبراهيم باشا واستقر فيها.

وبين هؤلاء الناظرين بالضاد من هو مسيحي لا يريد أن يؤذي شعوره^(٣).
وتجري في هذا الاتجاه قصيدته «مرحباً بالهلال» التي قالها لمناسبة
رأس السنة الهجرية، وصادف أن تزامن هذا العيد وعيد الميلاد عند
المسيحيين، فلم يقف قصيدته على المسلمين، بل جعلها شركة بين
الطرفين حتى ينال رضاها معاً فقال:

العامُ أَقبلَ نَمَ نَحيتي حلالاً كالتاجِ في هامِ الرجودِ تلالاً
عيدُ المسيحِ وعيدُ أحمدَ أَقبلاً يتباريانِ رضاءَ رجماً
ميلادُ إحسانٍ ومجرَّةُ سُؤدٍ قد غيراً وجهَ البسيطِ حالاً

ومن قصائده في هذا الاتجاه الذي يريد فيه أن يرضي جمهوره من
المسلمين والمسيحيين جميعاً، قصيدته في «مسجد أيا صوفيا» الذي كان
كنيسة، فحوّله الأتراك حين فتحوا القسطنطينية إلى مسجد تُقام فيه شعائر
الإسلام. فالموقف دقيق - كما يقول الدكتور شوقي ضيف^(٤) - لكنه عرف
كيف يخلص منه على أجنحة من الشّعور المرهف فقال:

كنيسةٌ صارتُ إلى مسجدٍ هديئةُ السيدِ للسيدِ
كانتُ لعيسى حرقاً فانتهتْ بنُصرةِ الروحِ إلى أحمدِ

لقد نظر شوقي إلى الأديان التوحيدية نظرة ملؤها التسامح والوعي،
ما دامت هذه الأديان كلها تؤمن بالله الواحد الأحد فالدين للديان جلّ
جلاله»، ولا تشرك به أحداً. وقد سلك في شعره الديني نهجين متوازنين،
يقوم الأول على معارضة المتقدمين كالبوصيري الذي عارضه في قصيدة
«نهج البُرْدَة»، وقلده في الوزن والروي والغرض، لكن بعقلية مثقفة^(٥)
عصرية، فقال:

- زيمَ على التاجِ بين البانِ والعلمِ أحلّ سنكُ دمي في الأشهرِ الحُرُمِ
كما عارضه في «الهنزيمة» وإن اختار بيا بحرًا آخر هو البحر الكامل وبدأها

(٣) شوقي ضيف، شوقي شاعر العصر الحديث، مصر، دار المعارف، طبعة ٢، ١٩٥٧،
ص ١٣٤.

(٤) المصطلق، ص ١٣٥.

(٥) عمر فزوخ، كلمة في أحمد شوقي، بيروت، مكتبة مينة، ١٩٥٠، ص ٢٢.

بقوله :

وُلِدَ الْهَدَى فَالْكَائِنَاتُ ضِيَاءٌ وَفَمُ الزَّمَانِ تَبَسُّمٌ وَرِثَاءٌ
يَا خَيْرَ مَنْ جَاءَ الوجودَ تَحِيَّةً مِنْ مَرْسَلِينَ إِلَى الْهَدَى بِكَ جَاوِزَا
أَنْتَى الْمَسِيحُ عَلَيْكَ خَلَفَ سَمَاوِيهِ وَتَهَلَّلْتُ وَاعْتَرَّتِ الْعَدْرَاءُ

ويقوم النهج الثاني على التطرق إلى الأديان التوحيدية الأخرى ولا سيما المسيحية التي وقت عندها موقفاً طويلاً ومشرقاً في أكثر من قصيدة. وحاول في هذه المواقف غرس روح التسامح الديني والمحبة بين المسيحيين والمسلمين، كقوله في مدينة التسططينية التي خرجت من يد الروم إلى يد الأتراك:

أَدَارَ مُحَمَّدٍ وَثَرَاتٌ عَيْسَى لَقَدْ رَضِيَاكَ بَيْنَهُمَا مَشَاعَا
فَيْلَ نَبَدَ التَّعَصُّبِ فَيْلِكَ قَوْمٌ بِمَدِّ الْجَهْلِ بَيْنَهُمَا يَزَاعَا؟

وهو يحترم جميع الأديان التوحيدية ويجعلها من دون تفریق:
أُرْسَلْتُ بِالتَّوَرَاةِ مُوسَى مُرْشِدًا وَابْنَ الْبَتُولِ فَعَلَّمُ الْإِنْجِيلَا
وَفَجَّرْتُ بِنُبُوْعِ الْبَيَانِ مُحَمَّدًا فَسَقَى الْحَدِيثَ رَنَاوَلُ التَّنْزِيلَا

وهو يدعو المسلمين إلى إعلاء تعاليم السيد المسيح، والمسيحيين إلى توقيف الإسلام، لأن الدين لله الذي لو شاء لرحد البشر كلهم وسلكتهم في دين واحد. فقبور الملتئمين متجاورة، وهل يستطيع أحد أن يفرق بين عظام من كانوا على هذا الدين وذاك؟ ولذلك يدعوهم بحق هؤلاء الموتى، واحتراماً لهم إلى أن يعيشوا في تفاهم ومحبة وسلام ووثاق قائلاً:

نَعْلِي تَعَالِيْمُ الْمَسِيحِ لِأَجِينِي وَيُوقِرُونُ لِأَجِينَا الْإِسْلَامَا
الِدِينُ لِلدِّينَانِ جَلَّ جَلَالُهُ لَوْ شَاءَ رُبُّكَ وَخَدَّ الْأَقْوَامَا
هَذِي قَبُورُهُمْ وَتِلْكَ قَبُورُنَا مُتَحَاوِرِينَ جَمَاعِمَا وَجِغَامَا
فَبِحَرَمِي الْمَرْتَى وَوَأَجِبْ حُفْنِي عِشْرَا كَمَا يَفْضِي الْجَرَارُ كَرَامَا

كذلك يدعو إلى تعانق الهلال والصليب في سبيل طرد المستعبر، ونيل البلاد استقلالها. فهما راية الله التي يعيش الناس في ظلها آمنين مطمئنين، في حين أن الحرب هي راية الشيطان:

جبريلُ أنتَ هدى السما ءِ وأنتَ برهانُ العِنايةِ
أبسطَ جناحيكُ اللذِبِ فيهما الطهارةُ والهدايةُ
وزِدَ الهلالَ من الكرامَةِ والصليبَ من الرعايَةِ
فهما لِرُكِّ رايةٍ والحربُ للشيطانِ آيةُ

لقد كان شوقي يعطف على المسيحية والمسيحيين، كما يعطف على
الإسلام والمسلمين، ولا يذكر النبي محمداً إلا ذكر إلى جانبه السيد
المسيح، فهما رمز الوحدة الوطنية والتآخي والتفاهم بين شعوب الأقطار
العربية.

ألم نكُ من قبلِ المسيحِ بنِ مريمَ وموسى وطه نعبُدُ النيلَ جارياً
فهلّا تاتينا على حَبِّه الهُدَى وهلّا قديناه ضفاناً ووادياً؟

وكان معجباً بالسيد المسيح ورسائله الإنشائية السامية القائمة على
المحبة والتسامح والإخاء والمساواة والرفق والتواضع... فهل هناك
أجمل من قوله؟

وُلِدَ الرَّفِيقُ يَوْمَ مَوْلِدِ عِيسَى وَالْمَرْدَةُ وَالهُدَى وَالْحَيَاءُ
وَسَرَّتْ آيَةُ الْمَسِيحِ كَمَا يَسُرُّ مِنَ الْفَجْرِ فِي الْوُجُودِ الضِّيَاءُ
تَمَلُّا الْأَرْضَ وَالْعَوَالِمَ نَوْرًا فَالْشَرُّ مَائِجٌ بِهَا وَضَاءُ
لَا وَعَيْدٌ، لَا صَوْلَةٌ، لَا انْتِقَامٌ، لَا حُسَامٌ، لَا غَزْوَةٌ، لَا دِمَاءُ
مَلِكٌ جَاوَزَ الشَّرَابَ فَلَمَّا مَلَأَ نَابِثٌ عَنِ الشَّرَابِ السَّمَاءُ

وكثيراً ما كان يرتاح لترديد أسماء الأنبياء في شعره، كقوله في
مخاطبة الجوهر الإلهي:

فمحمَّدُ لكِ والمسيحُ ترَجَلَا وترَجَلتِ شمسُ النهارِ ليُوشِعَ
ما بالُ أحمدَ عني عنك بيانهُ بل ما لعيسى لم يقلُ أو يدعِ
ولسانُ موسى انحَلَّ إلا عقدةً من جانبيكِ علاجُبنا لم ينجعِ

ويقول أيضاً:

أين الفراعنةُ الألى استذرى بهم عيسى ريمسُفُ والكليمُ المتسعنُ

ويقول:

وكلُّ معنى لعيسى في محايبه جاءت به من بناتِ الشعرِ عذراءُ

ويقول:

عيسى الشعورُ إذا مشى ردُّ الشعوبِ إلى الحياة
لقد كان شوقي رسول هداية الأمة العربية التي تعددت فيها الأديان
والمذاهب. ما أحوجنا اليوم إلى قراءة شعره مجدداً، والعودة إلى ديوانه
الشوقيات للاطلاع على مطولاته القيمة التي ضمَّها آراءه وأفكاره الإنسانية
الراقية الداعية إلى التفاهم الديني، وإشاعة روح المحبة بين الناس جميعاً،
لأنَّ الإنسان أخو الإنسان سواء أحبَّ أم كره!

صدر عن دار المشرق

